في ظلال العمارة الإسلامية
ميزات العمارة الإسلامية وحضارتها العريقة

الدكتور المهندس: حسان فائز السراج

الحلقة (٢)

إن من أهمِّ المميِّزات التي كانت تُميِّزُ المدارسَ المغربية أنها لم تكنْ مُخصَّصةً لتكونَ مدارسَ وقبوراً في الوقت نفسه كما هي الحالُ في مدارسِ الشرق الإسلاميّ. كما استخدمت الأحجارَ والآجرَّ في الواجهاتِ والجُدرانِ والحُجُرات، إلى جانبِ مُراعاة التماثُل بشكلٍ رئيسٍ في توزيعِ الكُتَل والعناصرِ المعمارية داخلَ المدرَسة؛ وخاصَّةً بين الكُتَلِ المتقابلَة، وكذلك انتشرتْ في بلادِ المغرب قِبابُ الأضرحةِ على قُبورِ الأولياء، ومن أشهرِ أنواع هذه العمائرِ ما يُوجَد في مقابرِ المدن أو على مَقرُبَةٍ من أبوابها، وهي تتألَّفُ من قُبَّةٍ نصفِ كُرويَّةٍ تعتمدُ على مخطَّطٍ مربَّعِ الشكل، ومن أشهَرِ الأضرحةِ المغربية ضريح مولاي "إدريس" بـ(فاس)، وضريحُ الأشراف السَّعديينَ بمراكش. وقد تلاشَتْ أو اندثرَتْ قُبورُ مُلوكِ غرناطة.

أمّا العمائرُ المدنية فقَد كان نصيبُها من العنايةِ قليلاً؛ وبخاصَّة في عصرِ المرابطين، كذلك انصرفتْ عنايةُ الموحِّدينَ إلى العمائرِ الدينيّة على الرغمِ من أسماءِ القُصور الكثيرة التي وصلتْنا عن عَصرِهم في كتُبِ المؤرِّخينَ؛ وبخاصَّةَ ما شُيِّدَ منها في (مراكش وأشبيليا).

ولكنْ من أهمِّ وأعظَم القُصورِ التي وصلتْنا أسماؤها قُصورُ مُلوكِ الأندلس في غرناطة والجعفارية في سرقسطة.

ويُعدُّ قصرُ الحمراءِ بغرناطةَ من أعظمِ العمائرِ التي خلَّفها المسلمونَ هناك، وقد جمعتْ عمارةُ هذا القصرِ بين التحصيناتِ الدفاعية ممثَّلَةً في (أسوارِها وأبراجِها) الخارجية، وبين روعةِ القاعات والصحون والعُقود المقرنَصة وأشغالِ الجصِّ الفريدة، والقباب المرصَّعة بالمقرنَصات وهندسةِ البساتين.

الطرازُ الأيوبيّ: كان عصرُ صلاحِ الدين الأيوبيّ وأخيه السلطانِ العادلِ من أزهى عُصورِ الدولة الأيوبية التي امتدَّ سُلطانُها ليشملَ مصرَ والشام واليمن، وعاشتْ حتّى عام ٦٥٨هـ، ١٢٥٩م، وكان طابَعُ الدولةِ الأيوبية السياسيّ طابعاً حربياً فَرَضَهُ الجهادُ المستمرِ ضدَّ الخطرِ الصليبيّ، وقد انعكسَ ذلك بدَورِه على ما شيَّدَه من عمائرَ في مصرَ والشام؛ حيث اتَّسمَت العمائرُ في الطِّرازِ الأيوبيّ بالطابَعِ الدفاعيِّ؛ فأكثَروا من بناء (الاستحكاماتِ الدفاعية، والقِلاعِ الحربية، والحُصونِ والأربطة، وتحصينِ المدنِ والثغورِ بالأسوارِ المدعَّمةِ بالأبراج).

أمّا داخلُ المدنِ فقَد غُصَّ بالمدارسِ من أجلِ بناءِ طواقمَ من الدُّعاةِ لمُقاوَمةِ الغزوِّ الصليبيّ، كما شُيِّدَتِ (المساجدُ والخانقاوات والبيمارستانات والأضرحة والزوايا والقيساريات والخانات والفنادق)، ومازالت معالمُ هذه المنشآتِ قائمةً إلى اليوم في مِصرَ والشام، وهي كافيةٌ لأنْ تُعطِينا السِّماتِ العامَّة والخصائصَ المعمارية لتلكَ الفتْرَة، والتي أهمّها الآتي:

غلبَ على العمائرِ الأيوبية (المدنية والدينية) طابَعُ التقشُّف، وعدمُ الإسراف في الزَّخرَفة؛ بسبب حالةِ الحربِ والجهاد التي أعلنتْها الدولةُ الأيوبية ضدَّ الصليبيينَ، كما تميَّزتِ العمائرُ الحربية في تلك الفترةِ بـ(القوَّة والمتانة) واستخدامِ الأبراج الضخمةِ في تدعيم جُدرانها.

استخدُمتِ الأحجارُ المنحُوتة بأحجامٍ كبيرة في بناءِ المنشآت؛ وبخاصّة في (الواجهاتِ والمداخِل والأسوار والأبراج)، كما استُخدم الآجرُّ في بناءِ القِبابِ والأقبية.

ظهرتْ في عمائرِ الطرازِ الأيوبيِّ بعضُ التأثيراتِ السلجوقية؛ منها استخدامُ القِباب في التغطيات، والأواوينُ وتخطيطات المدارس وبناء الخانات.

كما تأثَّرَ المعمارُ الأيوبيُّ ببعضِ العناصرِ (المعمارية والفنِّيَّة) الفاطمية؛ منها استخدامُ المعمارِ الأيوبيّ للصنجاتِ المعشَّقة، وكذلك الاهتمامُ بالواجهات، وشغلُها بالمقرنَصاتِ والعُقودِ الفارسية، وذلك على غِرارِ ما كان سائِداً في جامعِ الأقمر والصالح طلائع الفاطميَّينْ.

كذلك شاع في عمائرِ الطِّراز الأيوبيِّ استخدامُ القِباب التي شهدتْ عمارتُها تطوُّراً في ذلك الوقت؛ وبخاصَّة من حيث مناطقُ الانتقالِ المتمثِّلة في تحويلِ المربَّعِ السُّفليِّ إلى مُثمَّنٍ عن طريقِ رقبةٍ مكوَّنةٍ من طابقَينِ، إلى جانبِ ما تميَّزَتْ به القِبابُ الأيوبية بوجودِ زخارفَ زجاجيةٍ على خُوذاتِها الخارجية وهو الأسلوبُ الذي انتشرَ انتشاراً واسعاً في القِباب المملوكية.

كذلك اعتنى الأيوبيونَ بالمداخِل بشكلٍ خاصٍّ فشيَّدُوها في دخلاتٍ عميقة معقودة تُغلَقُ طواقيها (قِمَّة العقد) بصفوفٍ من المقرنَصات، وتُتوَّجُ فتحاتُها بعُقودٍ مدبَّبة، كما انتشرَ في العمائرِ الأيوبية استخدامُ العُقودِ بأنواعِها المختلفة؛ حيث استُخدم العقدُ المدبَّبُ أو المنكَسِر، كما شاع استخدامُ العِقدُ الحذوي (على شكل حُذوة) والعِقد العاتق (العِقد الذي يقومُ بتخفيفِ الحِمْلِ على عتبِ المدخَل)؛ الذي أخذَ مظهراً جديداً في تلك الفترة؛ حيث أصبحَ منخفضاً جدّاً، ومكوَّناً من صنجاتٍ حجرية صغيرة، كذلك استخدمَ المعمارُ الأيوبيّ– ولأوَّلِ مرَّة– الأعمدةَ ذات التيجانِ التي شُكِّلَتْ من الحطات المقرنَصة؛ ومن حيث أشكالُ المحاريبِ المستخدَمة في العمائرِ الدِّينية الأيوبية؛ فقَد تأثَّر المعمارُ الأيوبيّ بأشكالِ المحاريبِ الفاطميّة التي كانتْ تُزَخْرَفُ طواقيها بزخارف مُشِعَّةٍ من مركزٍ واحد.

ومن الجديرِ بالذِّكْرِ أنّ أكبرَ ما يُميِّز العمائرَ في الطراز الأيوبي قد جاء في العمائرِ التي ما زالتْ شاخِصةً إلى اليوم في

مِصرَ والشام. وهي تشهدُ على تطوُّرِ الأساليبِ الدِّفاعية التي جاءتْ في العناصرِ المعمارية للاستحكاماتِ الدفاعية، وهي تشهدُ كذلك على فنِّ تحصينِ المدنِ؛ من خلالِ الأسوارِ الضخمة المدعَّمة بالأبراج، ومِن أمثلتِها (أسوار القاهرة الحربية) التي أحاطَ بها السلطانُ الناصرِ صلاحُ الدِّين مُدنَ مِصرَ كُلَّها لحمايتِها مِن الهُجوم الصليبيّ عليها، هذا غيرُ ما شُيِّدَ من قِلاعٍ كان أهمّها (قلعةُ الجبل) بالقاهرة، و(قلعةُ حلب)، و(قلعةُ نجم) على الفراتِ و(قلعةُ حمص)، و(قلعةُ دمشْقَ) و(قلعة حماةَ)، وكانتْ جميعُها تضمُّ عناصرَ دِفاعيَّةً غايةً في التطوُّرِ ساعدتْ إلى حدٍّ كبير على صدِّ زَحْفِ الصليبيِّينَ إليها. لقد كان الأيوبيونَ بحقٍّ (أهلَ جهادٍ وعمارةٍ) في الوقتِ ذاته.

الطِّرازُ المملوكيُّ: لاريبَ في أنّ عَصرَي دولَتي المماليكِ البحرية والجركسيةِ التي حكمتْ من عام ٦٤٨ إلى ٩٢٣هـ، ١٢٥٠–١٥١٧م، كانا يُمثِّلانِ العصرَ الذهبيّ في تاريخِ مِصرَ والشام والحِجاز؛ إذ تبارَى سلاطينُ وأمراءُ تلك الفترةِ في تشييدِ العمائرِ المختلفة من جوامعَ ومدارسَ وخانقاواتٍ وأسبلَةٍ وأربطةٍ وحمَّاماتٍ وغير ذلكِ الكثير.

ولم يقفِ الأمرُ عند حدِّ الإقبالِ على البناءِ فحسب؛ بل اقترنَ مع هذه النهضةِ العمرانيةِ بتطوُّرٍ في الأساليبِ الفنِّيَّة الزخرفية، وكذلك بتطوُّرٍ في العناصرِ المعمارية الإنشائية؛ إذ اهتمَّ المِعمارُ المملوكيّ بواجهاتِ العمائرِ الدِّينية التي استخدمَ فيها أهمَّ العناصرِ المعمارية؛ مثل (كتلة المدخل الرئيسية، والقبَّة الضريحية، وفتحاتِ النوافذ المعشَّقة بالزجاج الملوَّن إلى جانبِ الدخلاتِ الرئيسية المعقودةِ وصُفوفِ المقرنَصاتِ التي تتوِّجُ أعلى الواجهاتِ، وكذلك الشُّرفاتِ المسنَّنة أو التي شُكِّلتْ على هيئةِ الورقةِ النباتية الثلاثيّة أو الخُماسيّة.

كذلك استخدمَ المماليكُ أنظمةً معمارية جديدة في التخطيطِ ظهرتْ بوضوحٍ في عمارةِ (المساجد والمدارس والأضرحة)– وإنْ كان قد غلبَ على بعضِ العناصرِ المعمارية التي شاعتْ في تلك الفترةِ التأثيراتُ السلجوقية إلى جانبِ استمرارِ التقاليدِ المعمارية المتبَّعة في تخطيطاتِ المساجد–.

ومن أمثلةِ ذلك جامعُ السلطان بيبَرس البندقداري الذي شُيِّدَ في عام ٦٥٦هـ، ١٢٥٨م، ويمتازُ هذا الجامعُ بتكوينِه المعماريّ الذي اشتملَ على صَحنٍ أوسط مكشوفٍ وأربعِ ظلاتٍ أكبرها القبلة.

وقد استُخدمت العقود المحمولة على أعمدة من الرخام في رفع السقف والقبة الرئيسية، كذلك استُخدم الحجر المصقول في بناء الواجهات الخارجية، كما استُخدم الآجر في بناء القباب والعقود، كما يمتاز هذا المسجد بوجود المدخل التذكاري وهو المدخل الذي يبرز عن سمت الواجهة، ومن أمثلة المساجد المملوكية أيضًا جامع الناصر محمد بن قلاوون الذي يتكون تخطيطه المعماري من صحن وأربع ظلات أكبرها ظلة القِبْلة، ويُمَيِّزُ هذا الجامعَ القُبَّةُ الضخمةُ التي تعلُو ظلَّة القِبْلة؛ وقد حُملَتْ على أعمدةٍ ضخْمة من الجرانيت، ومِن أمثلةِ هذا التخطيطِ أيضًا جامعُ ومدرسةُ المؤيَّد الذي يقعُ بجوارِ "باب زويلة" ويرجعُ تاريخُه إلى عام ٨١٨هـ، ١٤١٥م.

وإلى جانبِ طرازِ المساجد والمدارس المملوكية التي شُيدت وفق نظام الظلات، ظهر نظام جديد في تخطيط المساجد والمدارس يعرف بالنظام الإيواني، وهو صحن أوسط مكشوف تحيط بأضلاعه أربعة إيوانات أكبرها عمقًا إيوان

القبْلة وقد جاءت جميع الإيوانات متقابلة ومعقودة، وقد انتشر هذا التخطيط انتشاراً واسعًا في العمائر الدينية المملوكية بمصر والشام، وكان هذا التخطيط بداية لظهور نظامٍ آخرَ جديدٍ عُرِفَ بنظامِ المجمَعاتِ الدينية؛ أيّ: أنّ المنشأةَ أصبحتْ تؤدِّي أكثرَ من وظيفةٍ؛ إذ بدأ المعمارُ بإضافةِ وحداتٍ معماريةٍ جديدة إلى عمارةِ المدرسة أو المسجد، ومن أشهَر أمثلتِها في مصرَ "مجمع السلطان قلاوون" الذي يضمُّ (مدرسةً ومسجداً وضريحًا وبيمارستانًا وسبيلاً وخلاوي لأقاربِ الطلاب وميضأة –موضعِ الوضوء–) وغيرها من الملاحق الثانوية، ومن أمثلة هذا النظام أيضاً "مدرسةُ السلطان حَسن بن قلاوون" التي شُيِّدت في عام ٧٥٧هـ، ١٣٥٦م، والتي تُعَدُّ من أروعِ أمثلةِ المدارس على الإطلاق.

كما انتشرَ نوعٌ رابع من مخطَّطاتِ العمائر الدينية في عمائرِ الطراز المملوكيّ منذ عصرِ السلطان برسباي (٨٤٠هـ، ١٤٣٦م) يَعتمدُ تخطيطُه الرئيسيّ على النظامِ الإيوانيِّ (نظامٍ إيرانيٍّ عُرِفَ في تخطيطِ المدارس والمساجد)؛ ولكنْ بنسَبٍ أصغرَ ممّا كانت عليه في العصرِ المملوكيِّ البحريِّ؛ إذ بدأ المعمارُ في تقليلِ مساحة الصحن ممّا ساعدَ على تغطيتِه بسقفٍ خشبيٍّ على هيئةِ الفانوسِ عُرِفَ بـ(الشَّخشيخة)، ومن الجدير بالذِّكْرِ أنَ المعمارَ المملوكيَّ حافظَ داخلَ هذا النظامِ على تعدُّدِ وظائفِ المنشأة؛ ممّا يجعلُنا نَصِفُ أغلبَ المدارسِ بأنها شُيِّدَتْ وفْقاً لنظامِ المجمعات الدينية، ومن أشهرِ أمثلَتِها "مجمعُ السلطان قايتباي" بصحراء المماليك، و"مجمعُ السلطان الغوري" و"مجمعُ الأمير قرقماس" وغيرُها الكثير.

ومن أمثلةِ هذا الطِّراز في سورية "الرُّكنيَّةُ" و"المدرسةُ الجقمُقيّة".

كذلك امتازتِ المآذنُ المملوكية بـ(رشاقتِها وارتفاعِها وجمَالِ زخارفِها)، وقد شُيِّدَ معظَمُها على (قاعدةٍ مربَّعةٍ) يعلُوها (بناءٌ مُثمَّنٌ) تتخلَّلُه (شُرفاتٌ بارزة محمولة على محطَّاتٍ مُقرنَصة)، أمّا عن مداخلِ العمائر المملوكية فقَد اهتمَّ بها المعمارُ اهتماماً كبيراً، وأصبحتْ تحتلُّ مكاناً بارزاً على الواجهةِ إلى جانبِ مجموعة العناصر الزخرفية التي شَغَلَ بها المفنُّ المملوكيّ مداخلَ مُنشآته الدينية من أفاريزَ (بارزةٍ وغائرةٍ) وجفوت (حليات معمارية بارزة على المداخلِ والنوافذ والواجهات) ومقرنصاتٌ وحليات معمارية ونُقوشٌ كتابية. وقد تأثَّرَتْ مداخلُ العمائرِ الدينية في الطِّراز المملوكيّ بالمداخلِ السلجوقية.

كذلك ازدهرتْ في العمائرِ المملوكية (زخرفةُ الوزْراتِ الرُّخامية الملوَّنة) على الحوائط وفي الأرضيّات وفي المحاريب، ومن أبرزِ أمثلتِها "مدرسةُ السلطان حسن بن قلاوون"، و"مدرسة السلطان قايتباي" و"مدرسة السلطان الغوري".

كذلك شاع بناءُ (الخانقاوات) في العمائرِ الدينية المملوكية؛ وهي تلك التي بُنيتْ من أجلِ (إيواءِ الصُّوفيّة وتعليمهم على أيدي شيوخٍ مُتخصِّصينَ في الفقه والتفسيرِ وأصولِ التصوُّف)، وقد خُطِّطَتْ تلك العمائرُ على غرارِ تخطيط المدارس ذات (الإيوانات المتعامدَة على أضلاع الصحن)، ومن أشهرِ أمثلَتِها "خانقاة بيبرس الجاشنكير" و"خانقاة سيلار وسنجر الجاولي" بالقاهرة، كما شُيِّدتْ بعضُ الخانقاواتِ على غرارِ المساجد

الجامعة،ومن أمثلَتها "خانقاة السلطان الناصر فرج بن برقوق" الواقعة بمقابر المماليك بمدينة القاهرة. وقد جمعَت تلك الخانقاوات بين عدَّةِ وظائفَ منها (المسجد، والضريح، والسبيل، ومكتبٌ لتعليم الأيتام).

أمَّا العمائرُ المدنيّة في عصرِ المماليك؛ فقد تنوَّعَتْ بين (الخاناتِ والوكالات والفنادق)، ومن أمثلَتها "مدخلُ وكالةِ الأمير قوصون"، و"وكالة السلطان قايتباي" الواقعة بباب النصر بمدينة القاهرة، و"مقعد ماماي السيفي" المعروف بـ(بيت القاضي) و"خان الخليلي" و"وكالة الغوري". وقد تضمَّنَت هذه المنشآتُ الكثيرَ من العناصرِ (المعمارية والفنِّيَّة) التي انتشرتْ في عمائرِ الطِّراز المملوكيّ.

الطِّرازُ السلجوقيّ: يُمكِنُ إيجازُ الخصائصِ المعماريةِ التي تُميِّزُ عمائرَ الطِّرازِ السلجوقي بما يلي:

ابتكارِ التخطيط الإيوانيّ في المساجدِ والمدارس السلجوقية؛ حيث أصبحَ الإيوانُ هو العنصرُ الرئيسُ في العمائرِ السلجوقية، والإيوانُ قاعةٌ أو غُرفةٌ ذاتُ ثلاثةِ جدرانٍ، وتُفتَح بكاملِ اتِّساعِها على الداخلِ؛ سواء على (الصحنِ أو على درقاعةٍ) أيّ "قاعة"، وفي الأغلبِ ما يُغطِّي الإيوانَ عِقْدٌ معماريٌّ يرتكزُ على (حوائطَ حاملةٍ) بَدلاً من الأعمدَة. امتازتِ العمائرُ السلجوقيةُ بعَدمِ الاهتمامِ بمساحاتِ الصحون الكبيرة؛ حيث شيَّدُوها على أحجامٍ صغيرة، وقاموا بتغطيتِها بقبابٍ كبيرة، وإدخالِ مساحاتها ضمنَ المساحةِ المغطّاة.

شاع استخدامُ الأحجارِ (المصقُولَة والمنحُوتَة) في بناءِ المنشآت المعمارية؛ وبخاصَّة الواجهاتِ (الخارجية والمداخل)، وقد ساعدَ ذلك على تطوُّرِ صناعة النَّقْشِ على الأحجار. ويظهرُ ذلك جليًّا في عمائرِ الأناضول؛ إذ أضفَتِ النُّقُوشُ الزخرفية على واجهاتِ العمائرِ الدينية هناك مَظهراً فريداً وجديداً؛ وذلك نتيجةَ استخدامِ الصُّنَّاعِ وأساتذةِ الفنِّ التشكيليِّ أساليبَ نَحْتٍ مُبتكَرةٍ قوامُها الاعتمادُ على بُروزِ العناصرِ الزخرفية؛ لتُصبحَ غليظةَ الخُطوط؛ ممّا أضفى على الواجهاتِ مَظهراً فنِّيًّا يُذكِّرُنا بـ(فنِّ الباروك) الذي شاع استعمالُه في العمائرِ الأوروبية منذ القرنِ السابع عشرَ الميلاديّ.

ومن أشهرِ النماذج المعمارية السلجوقية التي تُعبِّرُ عن هذا الفنِّ "مدرسةُ أنجه منار" بـ"قُونية"، و"جامعُ وبيمارستان مدينة ديفري" و"مدرسة قرطاي"، و"مسجدُ علاء الدين" في قونية.

شاع استخدامُ الآجُرِّ في عمائرِ السلاجقة، وتطوَّرَتْ طريقةُ البناءِ بالآجرِّ في تلك الفترة؛ حيث استُخدِمَ الآجرُّ في بناءِ (القِباب والأقبية) إلى جانبِ استخدامه في بعض الواجهاتِ بأسلوبٍ (زُخرفيٍّ وإنشائيٍّ) معاً.

ومن أمثلةِ ذلك ما نجِدُه في (الأضرحةِ السلجوقية) بمنطقةِ الأناضول.

استُخدِمَت في العمائرِ السلجوقية البلاطاتُ الخزفية كمادَّةِ أساسٍ في تكسيةِ الجُدرانِ الآجريّة من الداخل، وتمتازُ البلاطاتُ الخزفية السلجوقية بألوانها الفيرُوزيّة، كما استُخدِمَتِ الأكسيةُ الجصِّيَّة على الآجرِّ.

شاع استخدامُ (القِبابِ والعُقود) المعمارية؛ ولا سيّما (العِقْدُ المعماريُّ نصفُ الأسطوانيّ والعُقود المعمارية المتقاطِعة)، كما استُخدِمَتِ القُبَّةُ عُنصراً أساسياً يعلُو المحرابَ، كما ظهرتْ أنواعٌ جديدة من القِباب يعلُو كلاً منها

(فانوسٌ) .

شاع استخدامُ المقرنَصات عُنصراً إنشائياً وزُخرفيّاً في المنشآتِ السلجوقية، وأصبحتْ من أهمِّ العناصِر التي يُشكِّلُ منها المعمارُ بُطونَ طواقي المداخِل والمحاريبِ وشُرفاتِ المآذن .

أمّا (المآذنُ السلجوقية)؛ فقَد امتازتْ بأشكالها (الأسطوانية أو المخروطية أو المضلَّعة)، وكان يتخلَّلُها في أغلبِ النماذجِ (شُرفةٌ أو شُرفَتان) حُملَتْ على مُقرنَصاتٍ . وقد (شُكِّلَتْ قِمَّةُ المئذنةِ السلجوقية على هيئةِ قلمِ الرَّصاص)، وهو الأسلوبُ الذي أثَّرَ بعد ذلك في مآذنِ العصرِ العثمانيِّ .

أمّا في إيرانَ فقَد شَهِدَتِ العمائرُ الدينية تطوُّراً كبيراً في عهدِ السلاجقة؛ إذ امتازتْ مساجدُ تلك الفترةِ بقِبابها العديدةِ وأقبيتِها، ومِن أمثلةِ ذلك "مسجدُ الجُمعَةِ" في مدينة "أصفهان"، واعتنى السلاجقةُ ببناءِ الأسوارِ والقِلاعِ والحُصون وسائرِ الاستحكاماتِ الحربية نتيجةً لحُروبِهم المستمرَّة مع الرُّومِ والصليبيِّين؛ ممّا طبعَ عمائرَهم بطابَع (القوَّةِ والمتانة)، وجاءتْ مبانيهم أقربَ ما تكونُ لِلحُصون، ومِن أشهَرِ أعمالِهم الحربية "سُورُ مدينةِ دمشق وقلعتُها" و"سُور مدينةِ قونية" وغيرُها .

أمّا القُصورُ السلجوقية فلم يبقَ منها إلاّ القليلُ، ومِن أمثلتِها "قصرُ الأميرِ بدر الدين لؤلؤ" في الموصِل؛ الذي يقعُ على نهرِ "دِجْلَةَ" .

ومِن أشهَرِ ما يُمَيِّزُ عمائرَ الطِّرازِ السلجوقي مجموعاتُ الخاناتِ التي أقبلَ السلاجقةُ على بنائِها في مختلفِ الطُّرُقِ الرئيسيَّة، وكان تصميمُها يُشبِهُ إلى حدٍّ كبيرٍ تخطيطَ المدارس .

الطِّرازُ الإيرانيُّ المغوليّ : يُمكِنُ إيجازُ الخصائصِ المعماريّة التي تُمَيِّزُ عمائرَ الطِّرازِ الإيرانيّ المغوليّ فيما يلي :

بناءِ الأضرحةِ على شكلِ أبراجٍ مخروطية إلى جانبِ الأضرحةِ التي شُيِّدَت عليها قِبابٌ ضخمة، ومِن أشهرِ أمثلتِها "ضريح السلطان الجايتو"، وكذلك "مجموعةُ القِبابِ الضريحية" بمدينة سمرقند التي دُفِنَ بها الكثيرُ من أفرادِ الأسرة التيمورية، ومِن أشهرِ الأضرحةِ هناك "ضريح تيمورلنك" (٨٠٨هـ، ١٤٠٥م)،

أمّا عن تخطيطاتِ المساجد في الطِّرازِ الإيرانيّ المغوليّ فقَد زادتْ فخامةً؛ إذ يتميَّزُ تصميمُها بالسِّماتِ الفنِّيَّة والخصائصِ المعمارية التي سادتْ في العمائرِ السلجوقية، ولا سيَّما التي نجِدُها في "المسجدِ الجامع" بمدينة "أصفهان" . ومِن أروعِ نماذجِ المساجدِ التي تعودُ إلى تلك الفترةِ "جامع قرامين" (٧٢٢هـ، ١٣٢٢م)، و"جامع جوهر شاد" بمدينة "مَشهَد"، و"المسجد الجامع" بمدينة "يزد"، كما شاع في عصرِ التيموريينَ بناءُ المساجدِ ذات (القِباب والمداخل) الفخمة، ومِن أشهرِ مساجد تلك الفترة "مسجدُ كليان" في "بُخارى"؛ الذي امتازَ باستخدامِ (الأحجار المنحوتة في بنائه، والإيوانات الضخمة، ومئذنته الأسطوانية)، كذلك امتازَ "مسجد كليان" باستخدامِ (المقرنصات في مئذنته وفي طاقية عقْد المدخل–قِمّة القوس–)، ومِن أشهرِ مساجد تلك الفترةِ أيضاً "الجامع الأزرقُ" الذي شُيِّد بمدينة "تبريز" في منتصف القرن التاسع الهجريّ الموافِق للخامس عشر الميلادي، ويعتمِدُ الجامعُ

على التغطيات المقبَّبة منها (القُبَّةُ الرئيسيَةُ) التي تتوسَّطُ كُتلةَ المسجد، وكذلك مجموعة القاعات التي تُغطِّيها قِبابٌ صغيرةٌ.

اهتمَّ التيموريونَ بإنشاءِ المدارسِ دون أن يُدْخِلُوا على تخطيطاتها أيَّ تغييراتٍ جوهرية؛ إلاّ أنّها كانت تتميَّزُ بـ(مآذنها الأسطوانية الضخمة) التي تحفُّ بمباني المدخل الرئيسيّ، كما شَيَّد "تيمورلنك" عِدَّةَ مدارسَ في "سمرقند" في القرن التاسع الهجريّ الموافق للخامس عشر الميلاديّ، ومن أشهر تلك المدارس "مدرسةُ أولوغ بك" (٨٥١هـ، ١٤٤٧م). وامتازتْ هذه المدرسةُ بوجود (أربع مآذنَ) في أركانها، وبـ(مدْخلِها الضخم المعقود بعقْدٍ مدبَّبٍ)، إلى جانب (حُجُرات الطُّلاّب) التي خُطِّطتْ من طابقَين.

ومن الجدير بالذِّكْر أنّ العمائرَ في الطِّراز الإيرانيّ المغوليّ قد اتَّجهتْ إلى البناء بالأحجار (المصقولة والمنحوتة)، على حين أنّ المعمارَ في تلك الفترة لم يتَّجهْ إلى استعمال الرُّخام في كسوة الجدران الداخلية، وربَّما يرجعُ ذلك إلى النجاح الكبير الذي حقَّقَهُ المعمارُ المغوليُّ في استخدام (قوالب الآجرِّ المطلي أو المزجَّج)، كذلك استخدَموا (الفُسيفساءَ، والقرميدَ، والبلاطات الخزفية) بأشكالٍ مُتعدِّدةٍ وأنماطٍ مختلفة؛ ممّا يؤكِّدُ على قُدرَة المِفنِّ في ذاك الوقت وتَفوُّقه. كما شاع في عمائر تلك الفترة استخدامُ (الجصِّ) في تكسيات الجدران الداخلية.

الطِّرازُ الهنديّ: ظهرتْ في عمائر الطِّراز الهنديّ عِدَّةُ تأثيرات؛ بعضُها (مَحلِّيٌّ) مثل (التقاليد الهندية في استخدام الحجَر مادَّةً رئيسية للبناء، وكذلك الخشب)، كما تأثَّرت العمائرُ الهنديَّة مباشرةً بالعمائر في "إيران وتركستان" التي تعتمدُ في عمارتها على اللَّبِن والآجرِّ كَمادَّةٍ للبناء.

أمّا من حيثُ التخطيطُ المعماريُّ فقَد امتازتْ عمائرُ الطِّراز الهنديّ؛ وبخاصَّة الدينية بـ(صُحون المساجد الواسعة) التي تحيطُ بها (أروقةٌ) غُطِّيَتْ بـ(قِبابٍ صغيرةٍ)، من أمثلتها "مسجدُ وزير خان" في "لاهور"، كما ظهرَ المسجدُ المغطَّى الذي اختفى منه عنصرُ الصحن، ومن أمثلته "مسجد غلبرغا".

وهناك تخطيطٌ ثالث هو (قاعةٌ صغيرة) بالنسبة لمساجد الصحن، يشبهُ تخطيطُها التخطيطَ الشائع في مساجد إيران، ومن أمثلته "جامع فتح بورسيكري"،

وهناك تخطيطٌ رابع ظهرَ في مساجد الهند قُسِّمتْ فيه ظُلّةُ القبلَة على غِرار مساجد المشرق في "مِصرَ والشام"؛ حيث تكوَّنَتْ ظُلّةُ القبلَة من ثلاث بلاطات، ومن أمثلتها "جامعُ اللؤلؤة"، أمّا من حيثُ العناصرُ المعمارية المستخدَمة فنجدُ أنواعاً من العُقود؛ حيث شاع في الطِّراز الهنديِّ (العقْدُ المدبَّبُ) من النوع الفارسيِّ، كما شاع (العقْدُ المدبَّبُ الشبيهُ بالعقْد الفاطميِّ)، ومن أمثلته "ضريح الإمبراطور أكبر"، كما شاع في عمائر الطِّراز الهنديّ استخدامُ (العقْد المفصَّص)، وهو يختلفُ عن النوع الذي عُرِفَ في الطِّراز (المغربيِّ والأندلسيِّ)؛ لأنّ (فُصوصَ العقْد الهنديّ أقلُّ من نِصْف دائرة). ومن أمثلة هذا النوع "جامعُ مسجد أجمير"، و"جامع التوتميش".

أمّا (القِبابُ) فقَد تعدَّدتْ أشكالُها؛ فمنها ما كان قطاعُها (عِقْداً مُدبَّباً) من النوعِ المنتشر في العمائرِ العباسية، ومنها ما كان قطاعُ عِقْدِه (مُتطاولاً، أو دائرياً، أو بصليّاً)، ومن أهمِّ ما يُميِّزُ (القِبابَ الهندية) أنّها كانت تتكوَّنُ من طبقَتَين (خارجيةٍ وداخلية) بينهُما فراغٌ واسع على غِرار (قُبَّةِ النَّسْرِ) في الجامع الآسيويِّ(المسجد الأمويِّ في دِمَشْقَ)، أو (قُبَّةِ الصخْرة) في فِلسطينَ، كذلك شاع في عمائرِ الطِّراز الهنديّ استخدامُ (الشاذروان)وهو : (مظلَّةٌ حَجريةٌ تتوِّجُ المآذنَ وواجهاتِ المباني وأركانَها)، وهي تختلفُ عن (الشاذروانِ) الذي عُرِفَ في العمائرِ العثمانية .

كذلك شاع في العمائرِ الهندية استخدامُ (الرَّفْرَفِ البارز) في (الواجهات، أو فوق الأروقة، أو حولَ رَقبةِ القُبَّة) وكان يرتكزُ على كوابيلَ صخريةٍ. أمّا (المآذنُ) التي شاع استخدامُها في طرازِ العمائر الهندية؛ فهِيَ مَبنيَّةٌ بالحَجَر، ولها بَدَنٌ (مُضلَّعٌ، أو أسطوانيٌّ، أو مخروطيٌّ)، وهي تختلفُ عن المآذنِ الشائعةِ في "إيرانَ وتركستان" .

كذلك امتازتِ العمائرُ في الطِّراز الهنديّ بـ(الأضرحةِ الضخمةِ)، وأشهرُها "تاج مَحلّ" الذي شيَّدهُ الإمبراطورُ "شاه جهان" في أكْرا لِزَوجَته "ممتاز محلّ"، وتبدُو التأثيراتُ الإيرانية في واجهةِ هذا الضريح؛ من حيث (شَكْلُ القُبَّةِ الرئيسيَّة، وإمالةُ الأركان، وهيئةُ الأبراجِ الأربعة)، ومن الأضرحةِ الهندية المشهورة "ضريح محمود عادل شاه" في "بيجابور"، ويرجعُ إلى سَنة ١٠٧٠هـ، ١٦٦٠م، ويمتازُ هذا الضريحُ بـ(أبراجه الأربعة المتَّصلَة بجُدرانِ البناء) وفي كُلٍّ منها سبْعُ طبقاتٍ من النوافذِ التي تُساعِدُ في عمليةِ تخفيفِ الثقَلِ الناتجِ من ارتفاعِ الجدران، كذلك شاع في العمائرِ الهندية بعضُ العناصرِ المعمارية لأغراضٍ زُخرفية، ومن أمثلةِ تلك العناصرِ في العمارة الهندية استخدام (الشاذروانات، والمقرنصات، والمحاريب المجوَّفة والمسطَّحة) التي استُخدمت بكَثْرَةٍ في تقسيمِ الواجهاتِ إلى دخلاتٍ رئيسيّة، كما استخدُمت (الأعمدةُ المنحوتة والدعائمُ المرتفعة)، وقد برعَ المفنُّ المسلمُ في الهندِ في أعمالِ النقْشِ على الحجَرِ والجصِّ والفُسيفساءِ الحجرية، والرسومِ الملوَّنة وتطعيمِ الأحجارِ وترصيعِها .

أمّا (العمائرُ المدنيةُ) في الطِّرازِ الهنديّ فتُمثِّلُها (القُصورُ) التي عُنِيَ حُكَّامُ المغول المسلمونَ بتشييدِ مُعظمِها ضِمنَ قِلاعٍ مَلَكيَّة في المدنِ المشهورة التي اتُّخِذَتْ (عواصِمَ) في عَهدِ إمبراطورية المغول كـ"فتح بورسيكري" و"أكْرا" و"لاهور" و"دلهي"، ومن أشهرِ قُصورِ الهند في العَهد المغوليّ "قصرُ أكبر" في أجمير؛ والذي امتازَ بوجودِ (سُورٍ مُحصَّنٍ ومُدَعَّمٍ بأبراجٍ مستطيلةِ الشكلِ تُوجَدُ في زواياهُ أبراجٌ ضخمةٌ مثمَّنةُ الشكلِ)، وقد جاء المدخلُ الرئيسُ المُوصِلُ إلى القصرِ في برُجٍ بارزٍ، أمّا في الداخلِ فيُوجَد (صحنٌ مركزيٌّ) تتَّصلُ به (غُرَفٌ مُربَّعةٌ موزَّعةٌ في أركانِ القاعة)، ومن أمثلةِ القُصورِ الهندية "قصرُ القلعةِ الحمراء في أكْرا" و"قصر فتح بورسيكري بالقرب من أكْرا" وغيرُها الكثيرُ[1] .

[1] منتديات ارابيا فور سيرف العمارة الإسلامية http://forum.arabia4serv.com/t65602.html#ixzz1i5NzfaLN